[١٤٩ – عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال: كان رسول الله ﷺ يخطب خطبتين وهو قائمٌ، يفصل بينهما بالجلوس].

هذا الحديث الشريف اشتمل على بيان هدي النبي ﷺ في خطبته يوم الجمعة، فإن من حكمة الله – سبحانه وتعالى – وكمال علمه: أن اختار لهذه الأمة هذا اليوم – كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ – ففضلها وشرفها بيوم الجمعة، ومن أفضل ما في يوم الجمعة ومما يتميز به عن سائر أيام الأسبوع: هذه الموعظة العظيمة وهي: خطبة يوم الجمعة التي يتزود فيها المسلم زاد التقوى ويستمسك بأسبابها – بعد توفيق الله – بعروة الله الوثقى، فإن التذكير والمواعظ لها أثرٌ عظيمٌ في القلوب: فإن الله يهدي بها من ضلالةٍ، ويرشد بها من غوايةٍ، ويجلو بها عمى البصيرة عن القلوب. فكم من قلوب اهتدت واستقامت وثبتت على طاعة الله ﷻ بالمواعظ النافعة والكلمات الجامعة لخير الدين والدنيا والآخرة؟

فهذه الخطبة التي شرعها الله ﷻ ثبتت عن النبي ﷺ الأحاديث في هديه فيها، فكان هديه فيها أتم الهدي وأكمله – عليه الصلاة والسلام –، واعتنى العلماء – رحمهم الله – ببيان ما ينبغي أن يراعى في خطبة يوم الجمعة، فنظرًا لاشتمال هذا الحديث الشريف على بيان هدي رسول الله ﷺ في خطبة يوم الجمعة من حيث نوعي الخطبة، وأنها خطبتان، وكذلك قيامه ﷺ في حال وعظه وفصله بين الخطبتين بالجلوس، نظرًا لاشتمال هذا الحديث على هذه السنن وهذا الهدي المبارك عن رسول الله ﷺ اعتنى المصنف – رحمه الله – ببيانه وذكره.

قال: **[(كان رسول الله ﷺ)]** وهذه الجملة – كما تقدم – تدل على الدوام والاستمرار، ولذلك أخذ العلماء – رحمهم الله – من هذا الحديث وأمثاله من الأحاديث التي وردت بهذه الصيغة التي تدل على المداومة: أن هذا هو الهدي الذي لا يسع المسلم أن يخالفه.

[(يخطب خطبتين)] كان من هديه – عليه الصلاة والسلام – في خطبته: أنه يستفتحها بحمد الله والثناء على الله بما هو أهله. وقد أجمع العلماء – رحمهم الله – على أن الخطبة وما فيها من التذكير بالله والموعظة يشرع استفتاحه بحمد الله والثناء عليه، فالله أحق أن يحمد وأحق أن يثنى عليه ويمجد، خاصةً في ذكره والمواعظ

التي يراد بها الدلالة على الله – عز وجل –، فخير ما يستفتح به العبد كلامه: أن يثني على الله الذي علمه ما لم يكن يعلم، وأن يثني على الله الذي فهمه، وأن يثني على الله الذي هداه ووفقه وسدده، ولو شاء الله – عز وجل – لأخرس لسانه، ولو شاء الله – عز وجل – لالتبس عليه بيانه، ولكن الله وحده الذي تداركه بلطفه، ولذلك قال الله لنبيه – عليه الصلاة والسلام –: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ فكان خليقًا بالعبد أن يستفتح أول ما يستفتح في كلامه أن يقول: "الحمد لله". ثناءٌ على الله وتمجيدٌ لله – سبحانه –، فيستفتح الخطيب خطبته بحمد الله والثناء على الله بما هو أهله. وقد جاء عن النبي ﷺ التوسعة في هذا الأمر فلم يلتزم حمدًا معينًا، ولذلك الأحاديث الصحيحة ومنها: حديث أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – قالت: "فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله". فالأحاديث التي بينت استفتاحه للخطب والمواعظ والكلمات بالحمد جاءت مطلقةً: أنه كان يحمد حمدًا مطلقًا، فيجوز أن يحمد بما شاء وليس هناك صيغةٌ يلزم بها الإنسان بحيث إذا خالفها يعاتب؛ لأنه من عوتب على مخالفة الصيغ فمعنى ذلك: أن من يعاتبه يعتقد الوجوب، وليس هناك دليلٌ في كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ بالإيجاب وتحتيم صيغةٍ معينةٍ في الاستفتاح، ولذلك نجد العلماء وأئمة السلف في كتبهم كلها ما وجدناهم يلتزمون صيغةً معينةً في الاستفتاح، وإنما كان ذلك كله على الإطلاق بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله.

أن يستفتح الخطبة بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله، وأن يشهد شهادة التوحيد وشهادة الرسالة، وذلك هو هديه – عليه الصلاة والسلام –، ثم بعد ذلك يفصل بين المقدمة وبين مضمون الخطبة بـ"أما بعد"؛ لأن رسول الله ﷺ ثبتت عنه الأحاديث الصحيحة: أنه كان يفصل بين حمد الله والثناء عليه، وكلامه الذي يقصد بيانه والدلالة عليه: بقوله: "أما بعد". ففي الصحيحين عن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – في قصة بريرة قالت: فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أما بعد، فما بال أقوامٍ يشترطون شروطًا ليست في كتاب الله؟ ...الحديث) فالسنة: أن يفصل بين ابتداء الخطبة ومقدمتها وبين مضمونها بقوله: "أما بعد"، ثم بعد ذلك يوصي بتقوى الله – عز وجل –، وهي الوصية الجامعة لخير الدين والدنيا والآخرة، وصية الله للأولين والآخرين ولصفوته من خلقه أجمعين، كما قال – سبحانه وتعالى –: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ فيستفتح بالوصية بتقوى الله – عز وجل –. قال الإمام الحافظ أبو عمر يوسف بن

عبد البر – رحمه الله –: جماع الخير كله "تقوى الله". فمن أوصى بتقوى الله فقد أوصى بخير الدين والدنيا والآخرة. ثم بعد ذلك يشرع في مضمون الخطبة، واختلف العلماء في هذا المضمون، لكن الصحيح – كما جزم به طائفةٌ من الأئمة واختاره كثيرٌ من المحققين –: أنه لم يرد نصٌّ بشروطٍ معينةٍ للخطبة، وأن المهم: أن تدور الخطبة حول البشارة بالخير والنذارة من عذاب الله – عز وجل – وسخطه وغضبه. فتقوم الخطبة على الأمر بطاعة الله والنهي عن معصية الله، فكل خطبةٍ اشتملت على هذا المقصد – ففيها بشارةٌ بالخير ونذارةٌ وتخويفٌ بالله عز وجل – فإنها خطبةٌ شرعيةٌ معتبرةٌ. ثم يدعو، وكان من هديه – عليه الصلاة والسلام –: الدعاء، ولذلك أخذ طائفةٌ من العلماء مما ثبت في الصحيحين من حديث أنسٍ في قصة الرجل الذي دخل ورسول الله ﷺ يخطب، فقال: "يا رسول الله! هلكت الأموال فادع الله أن يغيثنا". قالوا: هذا الحديث يدل على أنه كان من هديه – عليه الصلاة والسلام –: الدعاء في خطبة الجمعة، ولذلك سأله الرجل أن يجعل في دعائه الاستسقاء، وقد نص جماهير العلماء – رحمهم الله –، وهو محفوظٌ عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وغيره من الصحابة: الدعاء في خطبة الجمعة، فيدعو لعموم المسلمين والمسلمات، ثم بعد ذلك يجلس، ثم يخطب الخطبة الثانية ويتمها بنفس الصورة التي ذكرناها في الخطبة الأولى.

وكان من هديه – عليه الصلاة والسلام – في خطبته: أنه يقصر الخطبة ويطيل الصلاة. ولقد عجب بعض العلماء وبعض الأئمة فقالوا: كان يقصر من خطبته ويطيل من قراءته؛ لأن أبلغ المواعظ وأتمها وأكملها: الموعظة بكتاب الله – عز وجل –. فليس هناك أعظم من موعظة الله، ولذلك قال الله سبحانه يشهد من فوق سبع سماوات لكتابه: أنه خير المواعظ وأنه نعم الموعظة؛ لأنه من كلام الله، وكلام الله عز وجل – الذي هو صفته – أجل وأكرم وأكمل الكلام كله، ولذلك قال ﷺ: (إن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه) ولذلك اختار ﷺ من أدبه مع الله – عز وجل –، وهذا هو الفقه عن الله والعلم عن الله والأدب مع الله الذي كان عليه أنبياء الله – صلوات الله وسلامه عليهم –: أنهم يقدمون كلام الله على كل كلامٍ. فجعل الموعظة بكلام الله أتم من كلامه، فقصر من خطبته وجعل الصلاة طويلةً، ولذلك الصلاة جهريةٌ يوم الجمعة. فكان ﷺ يطيل في قراءته، وإذا تأملت وجدت أنه كان يقرأ بالجمعة والمنافقين في صلاة يوم الجمعة، فإذا نظرت إلى سورة الجمعة وسورة المنافقين وجدت السورتين لا تتجاوزان – مجموعتين – صفحتين ونصفٍ بالكثير، ومعنى ذلك: أن الخطيب الذي يريد السنة ينبغي ألا تجاوز خطبته الأولى والثانية صفحتين ونصفٍ.

وهذا هو الأكمل والأتم، فإن الإنسان لو تكلم فليس هناك أكمل من كلام الله – عز وجل –، ثم إن الناس إذا ذُكّروا وكانت الموعظة مختصرةً ودقيقةً وتدور حول معنىً معينٍ أو مقصود معينٍ: انتفعوا وفهموا وفقهوا، وإذا كثر عليهم الكلام: أنسى آخره أوله ومل الناس من الحديث، فإن الإنسان ضعيفٌ والنفوس ضعيفةٌ، والناس فيهم من عنده الحاجة، وفيهم السقيم والمريض وغيرهم من أهل الأعذار. فالتخفيف عن الناس وإصابة السنة وتحري السنة لا شك أنه أكمل وأولى إذا استطاع الإنسان لذلك سبيلاً، خاصةً عند وجود الظروف التي تحتم التخفيف على الناس: كشدة الحر، فإذا كان الناس في شدة الحر وغلب على ظن الخطيب أن أكثر الناس تحت وهيج الشمس، وأن فيهم كبير السن وأن فيهم الضعيف والسقيم، وفيهم من هو بحاجةٍ إلى أن يرفق به، وأحس كأنه تحت الشمس بعيدًا عن هذا الظل وهذه النعمة التي هو فيها في داخل المسجد وأخذ يستشعر كأنه خارجه: فإنه سيشفق على الناس ويخفف عليهم ويكون قلبه مع ضعيفهم، كما كان ﷺ ، كان يقرأ في صلاة الفجر ما بين الستين إلى المئة آيةً، كما في الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما –، ودخل ذات يومٍ فصلى، فسمع بكاء صبيٍّ فقرأ ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ ثم سلم – عليه الصلاة والسلام – وقال: (إني سمعت بكاء صبيٍّ فأشفقت على أمه) – فبأبي وأمي – ما أرحمه وأحبه للخير!

وهكذا تجمع قلوب الناس، وهكذا يكسب الداعية والخطيب قلوب الناس بالرحمة والشفقة وأن يكون كواحدٍ منهم، فإذا علا على المنبر أحس أنه بينهم يتلمس حوائجهم، ويحس بضعيفهم ويحس بسقيمهم ويحس بمن هو محتاجٌ إلى التخفيف، ويجعل نصب عينيه قول رسول الأمة ﷺ: (اللهم من ولي من أمور أمتي شيئًا فرفق بهم فاللهم ارفق به، ومن ولي من أمور أمتي شيئًا فشق عليهم فاللهم اشقق عليه). فلقد عهدت إنسانًا يخطب في يوم الجمعة ساعتين ونصفاً ويكون ذلك في شدة الحر، وإذا عاتبه الناس قال: إني أنا المتكلم وأنا الذي أعيا، وما بالكم تتعبون؟! وهذا لا شك أنه خطأٌ وخللٌ كبيرٌ، فيه تنفيرٌ عن ذكر الله – عز وجل – وفيه تنفير للناس عن مساجدهم، فيضطر الناس أن يخرجوا من هذا المسجد إلى مساجد بعيدةٍ ويتحمل كبار السن مشقة ذلك، أضف إلى أن فيهم من هو مريضٌ وسقيمٌ وشيخٌ كبيرٌ، كل ذلك ينبغي للخطيب أن يضعه في حسبانه.

أما هديه – عليه الصلاة والسلام – في مواعظه وكلماته: فكان ﷺ أكمل الناس موعظةً، وأتمهم بيانًا، وأحسنهم كلامًا، وأفصحهم لسانًا ﷺ ، وكان إذا تكلم تفجرت ينابيع الحكمة من كلامه وأخذ ﷺ بمجامع قلوب الناس، فيفتح الله له قلوبهم وأسماعهم فتقبل عليه الناس قلبًا وقالبًا – صلوات الله وسلامه عليه – من

عظيم ما آتاه الله من الحكمة والموعظة الحسنة. وأما مضمون الكلمات: فكانت كلها دلالةٌ على الله وأخذٌ بمجاميع القلوب إلى الله ﷻ ، وكان مع هذا كله إذا أراد أن يخطب: هزت الخطبة مشاعره ووجدانه – عليه الصلاة والسلام –، فإذا خطب أشعر كل من ينظر إليه – بعظيم حاله وما هو فيه من البيان والكلام –: أنه أمرٌ عظيمٌ، فكان حاله وهيئته تدل على عظم الأمر الذي يقوله والأمر الذي يبينه، فكان – عليه الصلاة والسلام – كما في الحديث الصحيح: "إذا خطب احمرت عيناه وانتفخت أوداجه، كأنه منذر جيشٍ يقول: صبحكم ومساكم" وهذا يدل على كمال هديه – عليه الصلاة والسلام –. فلا يليق بالخطيب إذا علا منبر الجمعة أن يخاطب الناس بهدوءٍ باردٍ ينام الناس معه مما فيه من البرود، وعدم الإشعار بهيبة المقام وكذلك هيبة الكلام الذي يقوله، بل ينبغي عليه أن ينفعل وأن يكون انفعاله مع خطبته متناسباً مع كلامه وما يذكره من مواعظه، ولذلك ذكر كثيرٌ من أهل العلم: أن هديه – عليه الصلاة والسلام – حال خطبته، حينما "كان إذا خطب انتفخت أوداجه واحمرت عيناه": أن هذا يلهب مشاعر الناس، ويجعل السامع متجهًا بكليته إلى الخطيب ويراقبه في كل ما يقوله وما يفعله، والعكس بالعكس. فهذه من الأسباب التي ينبغي أن يهيئها الخطيب لإقبال الناس عليه، وكذلك ينبغي عليه أن يتخير أحسن الألفاظ وأفضلها وأتمها وأكملها، وينبغي أن يُعلم أن المقصود يوم الجمعة: ذكر الله ﷻ ؛ لأن الله – سبحانه وتعالى – يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فالخطبة ذكر لله وليست لشيءٍ آخر، فليست هي لأمورٍ دنيويةٍ، وليست بحجرٍ على أفكارٍ أو مذاهب أو نحو ذلك من الاتجاهات، ولكنها ذكر لله وحده لا شريك له. فالواجب على كل خطيبٍ: أن يعلم أن من مسؤوليته يوم الجمعة: أن يخرج الناس من خطبته بحالٍ غير حالهم يوم أقبلوا، وأن يرجعوا إلى بيوتهم ومنازلهم بحالٍ أصلح من حالهم يوم أقبلوا، وينبغي عليه أن يستجمع لذلك كله الأسباب التي تعين، وأعظمها وأجلها وأفضلها: الإخلاص لله – عز وجل –. فإن المخلص الذي إذا تكلم راقب الله فيما يقول، وإذا تكلم ووعظ وعظ من قلبه وهو يراقب ربه يرجو رحمته ويلتمس رضوان الله في كل كلمةٍ يقولها وفي كل جملةٍ يُبينها، فإنه إذا فعل ذلك كان من وفاء الله له: أن يجعل كلامه للقلوب كالغيث للأرض الطيبة، فالكلمة التي تخرج من القلب تقع في القلب، وما كان من اللسان فإنه لا يجاوز الآذان. ولذلك دخل بعض الحكماء على خطيبٍ فصيحٍ في خطبته، جميلٍ في بيانه وكلامه، فأنصت إليه حتى قضى صلاته، ثم جاءه وقال: والله لقد أحسنت وأوعظت فأبلغت، ولكني لا أجد لموعظتك أثرًا في

قلبي!! فإما أن يكون العيب فيك أو يكون العيب فيَّ. إما أنك لم تخلص، فأعطاك الله حلاوة اللسان وحلاوة البيان وهذه لذةٌ عاجلةٌ وسمعةٌ فانيةٌ، وإما أن الذنوب حالت بيني وبين أن أنتفع. ولكن من المعروف والمعهود من سنة الله – عز وجل –: أنه ما أخلص أحدٌ في موعظته إلا وفق الله لبلوغ موعظته في القلوب، ولذلك تجد بعض الخطباء يحضر الناس في خطبته، فتسأل الرجل فإذا بهم يتحدثون بخطبته بعد أسابيع وشهورٍ: أنه تحدث عن كذا ووعظ في كذا. وبعضٌ من الناس يخطب، فإذا خطب وسألت الرجل بعد خطبته بيومٍ عن ماذا خطب؟ قال: والله لا أدري!! لأن الكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب، والله ﷻ مطلعٌ على السرائر، مطلعٌ على الضمائر، حكمٌ عدلٌ لا يظلم عباده شيئًا، وهو – سبحانه – الذي يعلم كل كلمةٍ تخرج، بل كل حرفٍ إذا خرج ماذا يراد به؟ وماذا يراد منه؟ فالخطيب إذا أراد أن تكون خطبته نافعةً جامعةً، موفقًا فيها مسددًا، معه من الله معينٌ وظهيرٌ: فعليه أن يخلص لله – عز وجل –، ومن دلائل الإخلاص: أنه يستوي عنده مدح الناس وذمهم، ومن دلائل الإخلاص: أن يتمنى أن هذه الكلمات المؤثرة والمواعظ النافعة بينه وبين الله لم يشعر بها أحد من الناس؛ لأنه يريد ثواب الله ويريد الجزاء من الله. كذلك مما يعين على انتفاع الناس بالموعظة: اختياره لكلام الله ﷻ وحديث رسول الله ﷺ ، فالعناية بكلام الله وكلام رسول الله ﷺ له أثرٌ عظيمٌ في الموعظة. بل كان ﷺ لا يقدم على كتاب الله، وكان – عليه الصلاة والسلام – يدور في خطبه ومواعظه حول كتاب الله ﷻ لا يجاوزه قيد شبرٍ – صلوات الله وسلامه عليه –. والسنة كلها: قولاً وفعلاً من النبي ﷺ ، ظاهرًا وباطنًا، كلها تدور حول كتاب الله ﷻ ، ولذلك لما سئلت أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها وأرضاها – عن خلق النبي ﷺ قالت – رضي الله عنها –: "كان خلقه القرآن" صلوات الله وسلامه عليه. كذلك أيضًا مما يعين على تأثر الناس بالخطبة: اختياره للمواضيع التي يحتاج الناس إليها، وأول ما ينبغي العناية: به العناية بأصول الدين: من توحيد الله ﷻ والإيمان به، وإخلاص العبادة له، وإفراده – سبحانه وتعالى – بحقوقه، ودعوة الناس إلى القيام بحق الله، وترك كل شيءٍ يناقض هذه الحقوق ويهدم شهادة التوحيد وينقضها: من الشرك بالله، والبدع، والوقوع في مخالفة هدي الكتاب والسنة – خاصةً في الاعتقاد –، فهذا أمرٌ واجبٌ محتمٌ على المسلم أن يعتني به. ثم بعد ذلك ينتقل إلى فرائض الإسلام وشرائعه، كل فريضةٍ على حسب درجتها وحاجة الناس إليها. كذلك ينبغي عليه أن يعتني بحاجة الناس إلى الموعظة في حقوقهم مع الأقربين، فيقدم حقوق الوالدين والقرابة والزوجات والأبناء والبنات، والمشاكل الاجتماعية التي لا يمكن أن تصلح الأسر

ولا يمكن أن تصلح المجتمعات إلا بحلها، وتنبيه الناس على أسبابها وتلافي تلك الأسباب، وتذكيرهم بالله – عز وجل – في جميع ذلك. كذلك يعتني بمشاكل الناس في معاملتهم المالية من البيع والشراء، فيأمرهم بما أمر الله به ورسوله وينهاهم عما نهى الله عنه ورسوله: يأمرهم بطيب المأكل والمشرب والمكسب، ويبين لهم ما ورد في ذلك من كتاب الله وسنة النبي ﷺ. فهذه المواضيع ونحوها ينبغي العناية بها، وينبغي على الخطيب إذا خطب في أمرٍ واحتاج أن ينبه على أخطاء أناسٍ ألا يشهر ولا يفضح الناس على المنابر، بل عليه أن يتقي الله ﷻ فإن المنبر مسؤوليةٌ وأمانةٌ، وعلى كل من رقى المنبر ألا يشعر أنه فوق رؤوس الناس بل عليه أن يتواضع لله ﷻ ، وأن يحس أن عنده من العيوب وأن عنده من الذنوب وأنه تحت رحمة الله ﷻ ، وأن الله وحده هو الذي لطف به، فيأخذ الناس بأسلوب الشفقة وكأنه ينظر إلى غريقٍ يريد أن ينتشله من غرقه بالتي هي أحسن، كما صور رسول الأمة ﷺ حاله فقال: (إنما مثلي ومثل الناس: كرجلٍ أضاع غنمه فصاح الناس بها فقال: دعوها لي، فأخذ يتألفها الواحدة تلو الواحدة) فالرجل إذا كان راعي غنمٍ يستطيع أن يخاطب غنمه بالأسلوب الذي يؤثر، فلما هاجت الناس نفرت غنمه عنه، فأمر الناس أن تنكف عنه وخاطبها بالذي تعرف وخاطبها بالذي تألف وهكذا الناس، ينبغي للخطيب أن يعرف ما هي الكلمات التي تؤثر في قومه وبيئته ومجتمعه، وما هي العبارات التي ينبغي أن يقولها وينبغي عليه أن يتخير أحسنها وأفضلها، فكان ﷺ في خطبته: ما كان صخابًا ولا لعانًا، ولم يكن – صلوات الله وسلامه عليه – منفرًا، بل كان على العكس من ذلك وكان يأنف من ضد ذلك، قال – عليه الصلاة والسلام –: (إن منكم منفرين). فعلى المسلم أن يكون بعيدًا عن التنفير، وعليه أن يعلم علم اليقين أنه إذا تكلم الكلمات الطيبة وخطب الخطب الهادفة النافعة وانتفع الناس بها وأحبوا الخير، فإن هذا مما يحبه الله ورسوله، ولذلك قال رسول الله ﷺ: (إني لأرجو أن أكون يوم القيامة أكثرهم تابعًا) فكان يحب – عليه الصلاة والسلام – أن يكون أتباعه أكثر، وأن يكون المتمسكون بسنته وهديه وسمته ودله أكثر. فينبغي على الخطيب أن يبذل كل الأسباب لذلك وأن يهيئ كل الأسباب لهذه الأمور، والموفق من وفقه الله. وإذا صدقت النية وحسنت فيما بين العبد وبين الله، فإن الله يصلح ما بينه وبين الناس، فمن أصلح لله سريرته أصلح الله علانيته، ونسأل الله العظيم أن يرزقنا السداد في القول والعمل. هذا الذي ينبغي على الخطيب في خطبة الجمعة من هدي رسول الله ﷺ وسنته، أما الذي ينبغي على الناس مع الخطبة، فأولاً: ينبغي التبكير للخطب وعدم الاستخفاف بخطبة يوم الجمعة، بل ينبغي للمسلم أن يعلم أن هذه الصلوات هي التي

بينه وبين الله، وأنه إذا أراد أن يبين ويظهر حبه لله وحب رسوله ﷺ وحب هذا الدين فليظهره بهذه الشعائر، فإن الذي يبكر للجمعة – يبكر ويبتكر – ويمشي إلى الجمعة ولا يركب، ويتحمل المشقة ويظهر هذه المحبة بفعله وتبكيره، فإنه – لا شك – أولى الناس بالأجر، وأعظم الناس أجرًا يوم الجمعة: من بكر إليها، وأعظم الناس أجرًا يوم الجمعة: من أحب مواعظها، وأحب أن يجلي الله عن قلبه الصدأ والعمى بسماع شيءٍ من كلامه وكتابه وهدي رسوله ﷺ.

التبكير للجمعة فيه فضائل عظيمةٌ:

أولاً: أن النبي ﷺ ندب إليه وحث عليه وحض، وبين الله ﷻ على لسان رسوله عظيم ما أعد من الثواب لمن بكر يوم الجمعة.

ثانيًا: أن التبكير إلى يوم الجمعة معينٌ على خشوع القلب وحضوره واستجماعه للموعظة، ولذلك تجد المبكرين للجمعة أكثر انتفاعًا من المتأخرين؛ لأن التبكير إلى الجمعة يجعل القلب مهيئًا لذكر الله أكثر مما لو أتى من تجارته وبيعه وشرائه إلى الذكر مباشرةً فإن القلب مشغولٌ بالدنيا، وإذا كان مشغولاً بالدنيا أخذ وقتًا حتى يقبل على الله، فلربما جلس منشغلاً بتجارته والقلب في سورته الدنيوية فلا تنطفئ هذه السورة إلا على إقامة الصلاة، وعندها يفوته من الخشوع شيءٌ كثيرٌ. ولكن إذا بكر وحضر وأنصت للخطبة من أولها، فإن التبكير يحدث عند الإنسان الشوق إلى حضور الخطيب والشوق لسماع الخطبة، وهذا مجربٌ، فإن التبكير للجمعة يحدث عند الإنسان حبًا للكلام والمواعظ التي تدله على الخير وتهديه إليه.

ثالثًا: أن الحسنة تدعو إلى أختها: فإن المبكر إلى الجمعة فعل حسنةً عظيمةً فالله سيوفقه في ما بعدها، ولذلك قالوا: شرعت الرواتب قبل الصلوات؛ لكي تعين على الفرائض، ولذلك إذا بكر كان التبكير يعينه على التأثر بالموعظة، فإذا خطب الخطيب ووعظ الواعظ ينبغي عليه أن ينظر في القول ولا ينظر إلى القائل، فالمهم: القول الذي يسمعه وأن يتأثر بهذا الكلام، ومن أعظم ما يعين على التأثر بالمواعظ: أن يسأل الله – عز وجل – القلب الخاشع، فإن القلوب مُعْرضةٌ إلا أن تقبل بإذن الله – عز وجل –، والقلوب ميتةٌ إلا أن يحييها الله وحده الذي لا شريك له، فإن الله أخبر أنه يحول بين المرء وقلبه، وكم من عبدٍ يعلم الله من قرارة قلبه أنه يحب أن يبكي ويحب أن يخشع، فيحول الله بينه وبين قلبه بسبب قطيعة رحمٍ أو عقوق والدين. فالمسلم أحوج ما

يكون إلى أن يسأل الله خشوع القلب، فإذا دخلت المسجد يوم الجمعة استشعرت أنك أربح الناس في هذا اليوم إن خشعت لله – عز وجل –، وأن الإنسان – والعياذ بالله – أخسر الناس وأشقى الناس وتقول: يا رب لا تجعلني أشقى القوم، فتسأل الله من كل قلبك أن يعينك على الخشوع؛ لأن الإنسان إذا دخل بهذا المعاني وهذا الشعور وفقه للتأثر. ثانيًا: أن يحس أنه بحاجة إلى هذا الكلام، وألا يحس أن عنده من الطاعة والخير والاستقامة ما يجعله مرتفعًا عن أن يذكره أحدٌ أو يعظه أحدٌ، فإن المسلم بحاجةٍ إلى من يعظه ويذكره، فإن الله قال لنبيه ﷺ من فوق سبع سماواتٍ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ فخاطب نبيه – عليه الصلاة والسلام – وهو أكمل الأمة إيمانًا وخوفًا وخشيةً، فخاطبه والخطاب له ولأمته ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ فأمره بتقوى الله ﷻ فالمسلم أحوج ما يكون. وثق ثقةً تامةً أنك إن تواضعت، بل لا نقول تواضع بل ينبغي أن تتذلل لكلام الله ورسوله، وكلما حضرت في مجلس ذكرٍ أو موعظةٍ لا تشعر أنك لست بحاجةٍ، بل أنت محتاجٌ، لست لمن يتكلم وإنما لما يكلمك به وهو: كلام الله وكلام رسوله ﷺ. فإذا تليت عليك آيات الله وتليت عليك المواعظ التي وعظ الله بها فاستجمع لها قلبك، واستشعر أن الله يأمرك وأن الله ينهاك وأن الله يعظك، فإذا كان عندك هذا القلب وهذا الشعور انتفعت وأحسست بالخير الكثير، وأحسست أن هذه الموعظة وهذه الخطبة تدخل وتلامس شغاف قلبك، نسأل الله العظيم أن يجعلنا وإياكم ذلك الرجل.

وأعظم ما يكون للمصلي والمأموم يوم الجمعة: أن يخشع خشوعًا كاملاً، ومن أعظم الخشوع: خشوع القلب وخشوع الجوارح، ولذلك قال ﷺ: (من مس الحصى فقد لغا) فإذا حضرت يوم الجمعة فإنه ينبغي أن يظهر عليك حال الخطبة الإنصات والتهيؤ للتأثر ومن ذلك: إطراق الرأس، واستجماع القلب والفكر لما يقال. فكان أصحاب النبي ﷺ إذا وعظهم رسول الله ﷺ ، كان أكمل ما أنت راءٍ وأجمل ما أنت راءٍ في حال مأمومٍ مع إمامه وحال مستمعٍ مع خطيبه، كان حال الصحابة مع رسول الله ﷺ كان أكمل الحال وأكمل الأدب. وهناك كلامٌ نفيسٌ للإمام الشاطبي – رحمه الله – ذكره في كتابه النفيس "الموافقات" قال: إن الصحابة – رضوان الله عليهم – رزقوا من حب الله وحب رسوله ما رزقهم الله معه كمال الأدب، وكان من كمال أدبهم: أنهم كانوا إذا خطبهم رسول الله ﷺ كانوا أكمل الناس تأثرًا بكلامه وبخطبته وموعظته. لما وقعت حادثة الحديبية بعثت قريشٌ سهلاً فجاء إلى رسول الله ﷺ يفاوضه في صلح الحديبية، قال ﷺ: من جاءكم؟ قالوا: سهلٌ. قال ﷺ: سهل لكم) فاستبشر وتفاءل والفأل سنةٌ، ثم تفاوض مع رسول الله ﷺ فرجع إلى قريشٍ،

فقالت له قريشٌ: ما وراءك؟ ما الذي رأيت وما الذي وجدت؟ فحلف بما يحلف به – وكان في جاهليته – فقال: والذي يحلف به سهلٌ ما رأيت أشد حبًا من حب أصحاب محمدٍ لمحمدٍ، والله ما خاطبهم فرفعوا أبصارهم إليه. من كمال أدبهم – رضوان الله عليهم –، فكانوا أكمل الناس وكان حالهم أكمل الحال. فإذا أراد المسلم أن يكون في أكمل الحال في يوم الجمعة فإنه يكون حاله حال الخاشع الذليل أمام كلام الله وكلام رسوله، وإذا أحس الإنسان أنه هو الذي يوعظ وأن الأخطاء أخطاءه وأن النصيحة له أشفق على نفسه، فتارةً يخشع قلبه وتارةً تبكي عيناه من خشية الله، ومن الناس من يخشع في خطبة الجمعة وعنده ذنبٌ، فيسمع الخطيب يقرعه في أذنه وفي قلبه ويلمس شغاف قلبه ويقول له: اتق الله في هذا الحد من حرمات الله، فيخشع لله في ساعته، ويعاهد الله من لحظته بترك ذنبه. فهذا الحديث فيه جملةٌ من المسائل:

المسألة الأولى: مشروعية الخطبتين يوم الجمعة، وقال طائفةٌ من العلماء: هما شرطٌ في صحة الجمعة. وقال بعض أهل العلم – كما هو مذهب الحنفية –: تجزئ خطبةٌ واحدةٌ. والصحيح: أنه لا بد من الخطبتين. قال بعض العلماء: كأن كل خطبةٍ مكان ركعةٍ. فنزلت منزلة الركعتين الأوليين من صلاة الظهر، ولذلك لا يتكلم فيهما ولا ينشغل بما لا ينبغي للمصلي أن ينشغل به.

ثانيًا: أن هاتين الخطبتين يفصل بينهما بالجلوس وهو هدي رسول الله ﷺ ، ويكون الجلوس يسيرًا.

ثالثًا: أنه يسن للخطيب ويشرع: أن يخطب وهو قائمٌ. وهذا يدل على أن هدي النبي ﷺ كله مستجمعٌ لتعظيم الخطبة، ولذلك نص طائفةٌ من العلماء على عدم صحة الخطبة إذا خطب الخطيب جالسًا وهو قادرٌ على القيام. ولا شك أنها مخالفةٌ لهدي رسول الله ﷺ وسنته.

وقوله: " ثم يصلي" فيه دليلٌ على أن من خطب بالناس هو الذي يصلي، وهذا هو هدي رسول الله ﷺ ولا ينبغي أن يخالف هذا الهدي، فيخطب بالناس خطيبٌ وهو قادرٌ على الصلاة فيقدم من هو حسن التلاوة أو من عنده نغماتٌ في الصلاة أو نحو ذلك، بل ينبغي التزام هدي رسول الله ﷺ والحرص على السنة، وذلك أن يخطب الذي يصلي ويصلي الذي خطب. لكن لو حصل للإمام عذرٌ: كأن يكون أحدث، أو انتقض وضوءه، أو تذكر أنه جنبٌ بعد فراغه من خطبته، فإنه تصح الخطبة ثم يقدم للناس مأمومًا بدلاً عنه، وذلك

الحال في الاستخلاف المجمع على مشروعيته فيقدمه للصلاة بالناس، لكن ينبغي أن يكون المأموم قد حضر الخطبة وسمع الخطبة أو شيئًا منها، فيصلي بالناس حتى يصح استخلافه، – والله تعالى أعلم –.